4. مصدر الفعل الذي على وزن (فاعل) يكون على وزن (الفعال) و(المفاعلة) مثل (قاتل يقاتل قتالا ومقاتلة). قال تعالى: "يا بنى أدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير"، ولقد ورد فى هذه الآية لفظان على صورة (لباس): أولهما معناه (الملابس) والثاني معناه (الملابسة)، أى وملابسة التقوى خير. ويدل على نفس المعنى النصوص التالية: "هن لباس لكم وأنتم لباس لهن"، "وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا"، " فأذاقها الله لباس الجوع والخوف".

5. معنى الوسطية: (الأفضلية)، قال تعالى: "حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى"، "من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم"، "قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون".

6. معنى الطباق: "الذى خلق الله سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور"، "ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا"، فسر طائفة من الناس (طباقا) بأنها طبقات بعضها فوق بعض، ولكن العلم الحديث يخبرنا عن (المجرات) المتطابقة التكوين فكلها نجوم وكواكب وعناصر أخرى لاتفاوت بينها. بل إن القرآن الكريم يشير إلى أن السموات التى خلقها الله بقدرته تظل فى حالة تمدد، والعلم يؤيد ذلك. قال تعالى: "والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون". أي خلقناها بقدرة (انظر أيّدك الله) وإنا لموسعون. أى وإن الكون ليتمدد. وعلى الله قصد السبيل .

وإلى جانب ذلك كان مسيلمة الكذاب يسمى نفسه رحمن اليمامة أى المهيمن عليها. وقالت جليلة، أخت جساس قاتل كليب حين سيقت للطرد من بيت زوجها:

إننى قاتلة مقتولة   فعسى الرحمن أن يرتاح لي

أى ينصفنى بحكمه، فالرحمن هنا هو المهيمن، والقرآن شاهد على ذلك.

2. الأولى والآخرة: "فكذب وعصى ثم أدبر يسعى، فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى". الأولى هى التكذيب والمعصية والآخرة دعوى الألوهية، وقد عاقبه الله بهما.

وقوله: "فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى، وما يغني عنه ماله إذا تردّى إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى". أى إن علينا أن نهدي من صدّق بالحسنى، وإن لنا أن نحاسب على الآخرة والأولى.

وقوله: "والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى، ألم يجدك يتيما فآوى، ووجدك ضالاّ فهدى، ووجدك عائلا فأغنى، فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربّك فحدث". الكلام هنا عن النزلة الأولى للوحي، والنزلة الثانية: "ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى افتمارونه على ما يرى، ولقد رآه نزلة أخرى، أم للإنسان ما تمنى، فلله الآخرة والأولى"، (المقصود هنا هو التعجب مثل "لله أنت"). تانكم هما نزلتان نزلهما الوحي.

3. "وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون". (أي له الحمد خالقا وله الحمد عالما).

تأمل هذه الأبيات ثم اذكر ما قلناه عن المعاقبة والنقل والحذف والإفادة تجد في كل منها دليلا على المعنى يبيح اللجوء إلى الترخص سعيا إلى أمن اللبس. والملاحظ أن العبارات اللواتي تحتها خط قد جاءت جميعا موحية بأسلوب الاستثناء والترخص أى على نية مخالفة القاعدة.

قلنا من قبل إن المعنى المعجمي قد يتعدد فى الجملة الواحدة، ويكون ذلك من خلال الترادف أو تشابه البنية أو اتحادها. إن من يتصدى للتأمل فى تفاسير القرآن الكريم سوف يلحظ أن بعضا من أقوال المفسرين لم يظفر بالكشف عن المعنى المقصود الذي تدل عليه القرائن اللفظية أو المعنوية فى سياق النص، على رغم ما في سياق النص من دلالات على المعنى المقصود بالتفسير المباشر أو بالتناص. وإليك بعض الشواهد:

1. الرحمن: قال بعض المفسرين إن معنى لفظي (الرحمن والرحيم) واحد فهما يشبهان (ندمان ونديم). غير أن ما في النص القرآني من التناص يفرق بين معنى كل من اللفظين وبين معنى الآخر فيجعل الرحمن بمعنى المهيمن ويجعل الرحيم بمعنى الرؤوف. قال تعالى: "وخشي الرحمن بالغيب"، "ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت"، "إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا"، "إن الشيطان كان للرحمن عصيا"، "قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم"، "وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن"، "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا"، "وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا"، "وعباد الرحمن الذين يمشون على الرض هونا"، "قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا"، "لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا"، "يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا"، "الرحمن على العرش استوى"، "إن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى"، "وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا"، "لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا"، "قل من يكلأكم بالليل والنهار من الرحمن"، "يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن"، "الملك يومئذ الحق للرحمن"، "إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا".

الموضوع تجعل الإفادة عندما تتم لأى سبب بديلا لتحقق القرينة التي حددتها القاعدة، ومن هنا يأتي قـــول ابن مالك فى كل حالة: (مالم تفد) أو ما فى معنى هذه العبارة.

ولا يكون اسم زمان خبرا	عن جثة وإن يفد فأخبرا
ولا يجوز الابتدا بالنكرة	مالم تفد كعند زيد ثمرة
والأصل فى الأخبار أن تؤخرا	وجوّزوا التقديم إذ لا ضررا
وحذف ما يعلم جائز كما	تقول زيد بعد من عندكما
وفى جواب كيف زيد قل دنف	فزيد استغنى عنه إذ عرف
وجائز رفعك معطوفا على	منصوب إن بعد أن تستكملا
وربما استغنى عنها إن بدا	ما ناطق أراده معتمدا
وشاع فى ذا الباب إسقاط الخبر	إذا المراد مع سقوطه ظهر
والحذف فى نعم الفتاة استحسنوا	لأن قصد الجنس فيه بين
وقد يجاء بخلاف الأصل	وقد يجي المفعول قبل الفعل
وقد يبيح الفصل ترك التاء فى	نحو أتى القاضي بنت الواقف
وأخر المفعول إن لبس حذر	أو أضمر الفاعل غير منحصر
وما بإلا أو بإنما انحصر	أخر وقد يسبق إن قصد ظهر
فى باب ظن وأرى المنع اشتهر	ولا أرى منعا إذا القصد ظهر
نقلا وفي إن وأن يطرد	مع أمن لبس كعجبت أن يدو
وقد ينوب عنه ما عليه دل	كجد كل الجد وافرح الجذل
و حذف عامل المؤكد امتنع	وفى سواه لدليل متسع
هذا إذا نويت معنى من وإن	لم تنو فهو طبق ما به قرن
وما من المنعوت والنعت عقل	يجوز حذفه وفى النعت يقل
وربما أسقطت الهمزة إن	كان خفا المعنى بحذفها أمن
والفاء قد تحذف مع ما عطفت	والواو إذ لا لبس وهى انفردت

- "قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين" (أي كما يفعل إبليس بضحاياه إذ يقول لربه: "ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم".

والوظيفة من القرائن أيضا، وهي مفهوم نحوي فإذا قلنا مثلا: "جاء زيد" فالمعنى النحوي أن جاء فعل ماض وأن زيدا فاعل، ومن هنا تكون الوظيفة مختلفة عن المعنى المعجمي الذي يقول إن (جاء) معناه (أتى)، وأن (زيدا) معناه رجل يعرفه المتكلم وقد يعرفه السامع أيضا. أي: أن معنى زيد له اتجاه إلى العهد فى بعض صوره. وقد تتعاقب الوظيفة أو تنتقل من لفظ إلى لفظ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل بشيء من التفصيل.

استعمل القرآن ألفاظا متعددة من مادة (ع رف) منها العرف والمعروف والتعريف والمعرفة والتعارف والاعتراف الخ. قال تعالى:

1. "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين"
2. "فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان" .
3. "فلما نبأها به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض".
4. "ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم".
5. "وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا".
6. "وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا".

وهكذا أصبح العرف إحدى طرق التوثيق فى القرآن الكريم، وإحدى وسائل التقويم للأحكام الفقهية فى الشريعة الإسلامية شأنه كشأن الكتاب والسنة. كما في قوله تعالى: "تعرفهم بسيماهم" وكذلك قوله جل شأنه: "ولتعرفنهم فى لحن القول".

رصد النحو للمعنى طائفة من القرائن وأخضع المعنى للاعتماد على القرينة (أي على رعايتها للوصول إلى الصواب) فإذا كان فى الكلام قرينة زائدة عن الحاجة أغنت عما سواها فتحقق بها أمن اللبس. ومن ذلك ما سبقت الإشارة إليه من قوله تعالى: "ولتعرفنهم فى لحن القول"، وهو أمر ينتمي إلى أسلوب الكلام لا إلى قواعد النحو. ومن المفيد فى هذه القضية أن نذكر أبياتا من ألفية ابن مالك أشارت إلى هذا

ومكانه بين القوسين فى نص الشاهد، وقرينة المحذوف هى "معرضين" في آخر الشاهد.

- "قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا ( ) وما أريد أن اخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله". اللفظ المقدر هو في المسافة بين القوسين، وتقديره "أكنت اخالفكم إلى ما أنهاكم عنه؟"
- "يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ( ) وبرزوا لله الواحد القهار"، اللفظ المحذوف المقدر هو "غير السموات".

أما المناسبة فقرينة، وهى شرط لا بد من الاعتداد به لسلامة الكلام. إن طلاب علم البيان يرددون عبارتين يقصدون بإحداهما سلامة النص، وذلك بأن يكون اللفظ في السياق ذا صلة بلفظ آخر مناسب له أو بحسب عبارتهم المشهورة (هو له). فالفاعل من شأنه أن يسند إلى فعل هو له. ويقصدون بالعبارة الأخرى اللفظ الغريب على السياق وهو المتصل بغير من هو له. أي أن بين اللفظين علاقة مفارقة لا علاقة مناسبة. فإذا سمعنا من يقول: (السماء تحتنا) فالذي بين السماء والتحتية علاقة مفارقة تحول بين العبارة وبين تناسب المسند والمسند إليه. وفي عرف البيانيين أن علاقة المناسبة فى الاستعارة هي وجه الشبه، وفي المجاز المرسل قد تكون العلاقة هي المكانية (أي الحالية والمحلية) أو الزمنية (ما كان وما يكون) أو السببية (السبب والمسبب) أو الكمية (العموم والخصوص) وفي الكناية (قرب المعنى وبعده). غير أن النص القرآني أوسع إحاطة بالمشكلة، ولا سيما في صياغة ألفاظ جديدة تتعلق المناسبة فيها بعلاقات تعود إلى ما يفهم من السياق في جملته، كما يلي:

- "إن شجرة الزقوم طعام الأثيم" (انظر ما قيل في صوغ هذه الكلمة منذ قليل).
- "الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور". فالمقصود أن الشجرة كأنها كوكب دري لا يشرق ولا يغرب كبقية الكواكب.

- لفظ الجلالة، نحو: "قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما".
- إن واسمها، نحو: "ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم".
- الظرف، نحو: "ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا".
- الضمير، نحو: "قالت يأيها الملأ إنى ألقى اليّ كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألاّ تعلوا علي وأتوني مسلمين".
- الإشارة، نحو: "قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا".

سبق أن ذكرنا أن من ألفاظ اللغة العربية ماهو معرب ومنها ما هو مبني. والإعراب علامة تلحق بآخر اللفظ المعرب لبيان معناه المقصود، وهو في هذا الموقع الذي هو فيه، وقد تكون علامة الإعراب حركة، وقد تكون حرفا أو حذفا أو تقديرا لواحدة من هذه العلامات، أو ظاهرة مما يعرض له من هذه الظواهر الموقعية. ولقد اخترع النحاة للإعراب عاملا جعلوه متغيرا بين اللفظي والمعنوي وظل هذا العامل رهن التطبيق النحوي حتى وقتنا هذا إذ بدأ المحدثون من دارسى اللغة يوجهون النقد إلى هذا العامل ويحلون محله سببا آخر للإعراب هو الوظيفة التى يحددها سياق النص. وقد يكون اللفظ المعرب اسما، نحو: "يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات" ، أو فعلا، نحو: "فلا أقسم بمواقع النجوم" أو صفة، نحو: "قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات" أو أحد الأسماء الخمسة نحو: "قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف" أو حذفا لحرف علة نحو: "ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون".

والبنية من قرائن النحو، وأكثر ما تكون البنية قرينة ضرورية عند غيبة الإعراب. كما أن البنية قد تحذف فيجري تقديرها كما يلي:

- "وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون ( ) وماتأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين" المحذوف مقدر وتقديره (أعرضوا)

منقولا عن علاقة إسنادية كما في (فضرب الرقاب) أى اضربوا الرقاب، أو عن علاقة وصفية كما فى (أرذل العمر) أي العمر الأرذل، وغير منقول كما فى (عباد الرحمن).

والرتبة أو الترتيب هي العلاقة بين عناصر السياق تقديما وتأخيرا، ويقع ذلك فى نوعين: رتبة محفوظة ذات قواعد لا يصح تجاهلها ورتبة أخرى غير محفوظة يمكن التصرف فى شأنها بحسب ما يرى المتكلم. كما في قوله تعالى: "فلا يؤمنون إلا قليلا"، وقوله جل شأنه: "فقليلا ما يؤمنون"، وما بين هاتين العبارتين من اختلاف المعنى بتقديم لفظ (قليلا) وتأخيره. ومن ذلك أيضا الرتبة التي أحكمت مواقع الألفاظ في قوله سبحانه: "أئفكا آلهة دون الله تريدون". أما الرتبة المحفوظة فمثالها: "وربك أعلم بمن في السموات والأرض".

الأصل في الربط أن يكون بإعادة اللفظ الذي سبق ذكره للتذكير به أو إعادة المعنى لإتمام وحدة موضوع الكلام. فمن الممكن أن يكون الربط كما يلي:

- "ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون".
- "دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين".

ومن الممكن أن يكون الربط بوسيلة أخرى مما يلي:

- الجار والمجرور، نحو: "أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون".
- التركيب الإضافي: "فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين".
- الموصول وصلته، نحو: "وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم آسوأ الذى كانوا يعملون".

- الشبه منصوب التعجب مشبه بالمفعول به
- التحويل التمييز قد يحول عن الفاعل أو عن المفعول.

وكل ذلك بمعنى المعاقبة، لأن معنى المعاقبة أن يحل اللفظ محل لفظ آخر فيستولي على موقعه وإعرابه مع الإبقاء على لفظه فى بعض الحالات كما في قوله تعالى: "فلا تميلوا كل الميل" إذ نقلت فتحة المصدر (الميل) إلى لفظ (كل) وبقي المصدر مضبوطا بكسرة. وأما النقل فإنه يمنح المنقول إليه معنى المنقول منه دون حروفه، كما فى قوله تعالى: "طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى"، فالمعروف أن (إلا) حرف استثناء، ولكنها هنا غير صالحة لذلك لعدم وجود ما يصلح أن يكون مستثنى منه، وإنما يصلح السياق لمعنى الاستدراك الذي تدل عليه (لكن)، فيكون المقصود هو: (لكن أنزلناه تذكرة لمن يخشى). ومن هذا القبيل ما في قوله تعالى: "لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما"، فالسلام لا يستثنى من اللغو، وإنما يستدرك به عليه. وشرط استعمال "إلا" فى الاستدراك أن تكون الجملة التى سبقتها منفية كما رأينا فى الشاهدين السابقين. وقد تنقل (إذ) إلى المصدرية كما في قوله تعالى: "ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا" أو إلى التعليل نحو: "وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم". وقد تنقل اللام إلى معنى المصدرية كما في: "يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره" وقد تنقل اللام إلى معنى (عن) نحو "ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا".

بهذا نعلم أن المعنى على المستوى الصرفي راجع إلى المبنى التركيبي، وهو على المستوى النحوي راجع إلى العلاقة السياقية، وعليهما معا، وهو على المعجم راجع إلى العرف، بناحيتيه العامة والخاصة. ولعل أوضح ما يختص به المعنى السياقي هو ما يدل عليه من القرائن لفظية كانت أم معنوية. وأهم هذه القرائن التضام (وما يشمله من افتقار أو اختصاص) والرتبة (محفوظة أو غير محفوظة) والربط (وما يتحقق به من الوسائل) والبنية والمناسبة والوظيفة والعرف والرخصة، الخ.

فالتضام علاقة بين عنصرين مذكورين أو أن أحدهما مقدر. ومن هذين العنصرين إما أن يكون أحد عناصر التركيب (كما فى التركيب الإضافي أو الإسنادي مثلا)

عدد حروفه فوجدوها ثلاثة سموها فاء الكلمة وعينها ولامها. (وكان ذلك أشبه ما يكون بالبنية العميقة التى قال بها تشومسكي) فكان حجر الزاوية في بنية النظام الصرفي. ونظروا إلى الكلمات المستعملة فعادوا بها إلى أصل الوضع فلاحظوا بالمقارنة أن عدد حروف الأصل ثابتة لاتختفي، وأن حروف المفردات المستعملة تظهر وتختفي بحسب مواقعها فى سياق الكلام، وأن هذا الظهور وذلك الاختفاء يتم حسب قواعد تنظم علاقة العدول عن الأصل والرد إليه وتعرف بأنها (قواعد التصريف). وهذه القواعد أهم ما يمتاز به النظام الصرفي وتعد من صلب طلب الخفة وتشبه قواعد التحويل للبنية السطحية.

قلنا إن النظام الصرفي يقدم للنحو طائفة من القرائن اللفظية، وذكرنا من هذه القرائن التضام والرتبة والربط، ونحب أن نضيف إلى ذلك هنا الحذف والزيادة والمعاقبة والنقل. وقد جاء ذكر الحذف والزيادة فى شرح مفهوم أصل الوضع منذ قليل، ويجدر بنا هنا أن نتناول بالشرح فكرة المعاقبة. وحين تناول النحاة فكرة المعاقبة لم يطلقوا عليها هذا الاسم ولم يقنعوا بإيراد مصطلح واحد للدلالة عليها وإنما استبدلوا بها الألفاظ التالية:

- النيابة حروف الجر ينوب بعضها عن بعض
  ينوب المفعول به عن الفاعل فيسمى نائب الفاعل
  "كل" و"بعض" ينوبان عن المفعول المطلق
- السداد الفاعل يسد مسد الخبر
  الحال تسد مسد الخبر
  أنّ وما بعدها تسد مسد مفعولي ظن
- الإغناء (ترك) أغنى عن (ودع)
- العوض التنوين للعوض
- التأويل الجامد يؤول بالمشتق
- الحلول (يا) النداء حلت محل (أدعو)
- المنزلة (ما) نافية بمنزلة (ليس)

منهما وظيفة سياقية هى إفادة الواو لمعنى العطف وإفادة الباء لمعنى الواسطة. مثال الواو قوله تعالى: "وصدق الله ورسوله" إذ ربطت الواو بين الله ورسوله على معنى العطف. وأما دلالة الباء على الواسطة فهي مثلا في قوله تعالى: "وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله"؛ إذ جاءت الباء وسيلة للجهاد والتضحية بالمال والنفس. والمعروف أن الأداة إحدى القرائن اللفظية التى تعد من عطاء النظام الصرفي للنظام النحوي، شأنها شأن التضام والرتبة والربط وغير ذلك من القرائن اللفظية التي تدخل فى جملتها تحت مفهوم طلب الخفة.

ويقوم طلب الخفة بالنسبة للنظام الصرفي مقام أمن اللبس بالنسبة لنظام النحو ويختلف كل منهما عن الآخر من حيث اتصال أحدهما باللفظ واتصال الآخر بالمعنى. وفيما يلي شرح المقصود بطلب الخفة: عندما تصدى النحاة العرب لدراسة النحو كان عليهم أولا أن ينظروا إلى المفهومات الصغرى القابلة للتامل وهى المفردات. وأول ما أرادوا الوصول إليه أن يستكشفوا جهات الاتفاق والاختلاف التى تخلق منها نظاما يجعل تناولها أمرا ممكنا ومقبولا وييسر القدرة على استيعاب فهمها. عندئذ صادفوا وضعا معقدا لا يعين على التناول والدرس. وجدوا أن كل مجموعة من الألفاظ المتفقة الوظيفة تختلف تراكيب مفرداتها على نحو يصعب معه أن توضع فى مجموعة تركيبية واحدة ليسهل وصفها والكلام عنها. ووجدوا استعمال بعض ظواهرها مكروها يتنافى مع الذوق العربى وطلب الخفة نحو توالي الأمثال والتقاء الساكنين وتوالي أربع متحركات فيما هو كالكلمة الواحدة ونحو ذلك. فلو نظرنا إلى لفظ (قال) مثلا من وجهة نظر دياكرونية (أى عمودية) لوجدنا مفردات المادة تشتمل على ألفاظ مثل قول وأقوال وقوّال وفهمنا أن الحرف الأوسط من الأصول الثلاثة لمفردات المادة يظهر حينا ويختفى حينا آخر.

وهكذا هداهم التفكير إلى ملاحظة أصول الاشتقاق فوجدوا أن أصل الاشتقاق يجمع بين مفردات متباينة البنية، ولكنها تسمح بالانتفاع بمبدأ الحذف والزيادة وباختراع أصل اشتقاق تعود إليه المشتقات الماخوذة منه فى كل مجموعة اشتقاقية. ومن ثم ظفر النحاة بأول خطوات التنظيم اللغوي، وعرفوا ما يقع من الحذف والزيادة فوصلوا إلى استنباط اصل آخر أطلقوا عليه مصطلح أصل الوضع ونظروا إلى

- كان من الممكن أن تأتي بعد القاف حركة قصيرة تختصر بقاء اللقمة في هذا المكان، ولكن إرادة استمرار الإحساس بالضيق جاءت بالواو بعد القاف لتضيف إلى الضيق ضيقا آخر لأن واو المد أطول من الضمة.
- يمكن لمن يريد أن يشرب أن يفعل ذلك وهو مفتوح الشفتين، لكن من يريد ابتلاع الطعام (كما فى طعام الأثيم) لا يمكنه ابتلاع اللقمة إلا بشفتين مقفلتين، ومن هنا كان إقفال الشفتين فى نهاية الكلمة. وهكذا تكون صياغة اللفظ بطريق الحكاية Onomatopoetic.

قد يسأل سائل عما إذا كان المعنى الانطباعي مقصورا على الحروف المفردة أو أن له أن يتخطى الإفراد إلى السياق المتصل. والجواب على ذلك أن الانطباع كما يكون تاثرا سمعيا كما عرفنا في قوله تعالى: "ولتعرفنهم فى لحن القول" يكون تأثرا بصريا كما يؤخذ من قوله تعالى: "للفقراء الذين احصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسالون الناس إلحافا"، والمقصود بسيماهم ما يبدو على هيئتهم العامة من الفقر والمذلة. ومن معرفة الناس بسيماهم ما في سورة يوسف من قوله تعالى: "وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون"، أى أنه عرفهم بسيماهم.

ما يزال الكلام عن المعنى الانطباعي للأصوات قائما حتى عندما نتحول إلى الكلام فى الدلالة الصرفية. فقد تكون دلالة المعنى وظيفة لحركة الإعراب، كما في قوله تعالى: "ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه"، إذ تؤدي حركة الكاف من لفظ (الفلك) وظيفة الدلالة على المفعولية. وقد يكون الدليل على الإعراب حرفا كما فى قوله جل شأنه: "يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف"، وقد يكون الحرف مقدّرا غير مذكور نحو "قال موسى لأخيه هارون اخلفني فى قومى"، فموسى فاعل مرفوع بضمة مقدّرة على آخره منع من ظهورها التعذر. وهنا نخرج من إقليم انطباع الحروف المفردة إلى وظائف الأدوات الحرفية.

قد يتحول مفهوم الصوت إلى مفهوم صرفي للأداة فتكون الأداة حرفا مفردا حينا ومركبا حرفيا حينا آخر. مثال الحرف المفرد وواو العطف وباء الجر، وأداء كل

بحرف ساكن فعليه أن يبدأ كلامه بهمزة وصل بعدها حركة ثم يأتي الحرف الساكن. مثال ذلك أن صوت الفاء مهموس فى نظام اللغة وأن النطق به وهو مفرد يتطلب البدء بالهمزة المذكورة كما في قوله تعالى: "فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما" فمن ضاق ذرعا بوالديه ورأى أن يعبر عن ضيقه بالفاء الساكنة فعليه أن يصل إليها بواسطة الهمزة المضمومة.

والمثال الآخر على هذا التصرف ما في قوله تعالى: "ويسألونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق مثلما أنكم تنطقون". فالياء في لفظ (إي) ساكنة، ومن ثم جاء التوصل إلى النطق بها بواسطة همزة مكسورة. ومن أمثال ذلك أيضا قوله تعالى: "مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض"، فحكم الثاء فى (إثاقلتم) كحكم الفاء والياء فيما سبق.

هذا النوع من الدلالة الانطباعية غير مقصور على الحروف المفردة. فقد يحدث صوغ كلمة مكونة من عدد من الأصوات الموحية بانطباع معين كما نرى فى كلمة (الزقوم) التي فى قوله سبحانه: "إن شجرة الزقوم طعام الأثيم". والثابت أن هذه الكلمة لم يسبق وجودها قبل صوغها، فالله سبحانه يقول: "إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين". أما صوغ الكلمة فقد روعي فيه ما يلى:

- فى اجتماع الحرفين الأولين من الكلمة إشارة إلى أن هذه الشجرة مصدر للطعام بدليل قوله: "طعام الأثيم"، واللفظ يشير إلى القول المشهور: "زق الطائر فرخه" أى أطعمه.
- الحرف التالي من الكلمة هو القاف، ومخرجه أمام اللهاة فالموضع الذي تستقر فيه اللقمة قبل ابتلاعها.
- هذه القاف مشددة مما يوحي بأن اللقمة طال استقرارها فى هذا المكان ومن شأن ذلك أن يسبب الضيق والألم.

التسلق أسهل من النقب عبرت الآية الكريمة عن ذلك بحذف التاء من استطاعة التسلق وبإبقائها فى مصدر النقب.

ــ قال جل شأنه: "أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهدى"، وقال: "ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون".

حذفت التاء وكسر ما قبلها لسبب واحد هو صعوبة أداء الحدث في الحالتين. وقد خضع هذا التغير للقاعدة الصرفية الآتية: الأصل: يهتدي. نقلت حركة التاء إلى الساكن الصحيح قبلها، وهو الهاء فسكنت التاء، اجتمع مثلان (التاء الساكنة والدال المكسورة). أدغمت التاء فى الدال المكسورة فأصبح اللفظ (يهدي) بفتح الهاء، حولت فتحة الهاء إلى كسرة للمناسبة، والأمر بالمثل في (يخصمون).

ــ قال تعالى: "إنها عليهم مؤصدة" أي النار، وقال: "جنات عدن مفتحة لهم الأبواب".

ومعنى هذا أن النار مقفلة على أهلها فلا تفتح إلا لاستقبال آخرين، وأن الجنة مفتحة الأبواب بصورة دائمة. فإذا قال تعالى فى شأن جهنم: "حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها" فالفتح لا يكون إلا عند المجيء. أما إذا قال: "حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها" فالمعنى "وقد فتحت أبوابها"، ويكون جواب (حتى) هو قول الخزنة: سلام عليكم مع زيادة الواو في (وقالت). هذا شبيه بالواوات في قوله تعالى: "فلما أسلما وتله للجبين وناديناه" إذ يصلح تخريج المعنى على القول بزيادة أي من الواوين وأصالة الأخرى. المقصود بالمعاني التى عبرت عنها الحروف فى الشواهد السابقة هو الوظائف النحوية التي تفهم من الذكر والحذف والموقع وهلم جرا، وللحروف معان أخرى انطباعية من النوع الذى عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: "ولتعرفنهم فى لحن القول" أي في نغمات كلامهم، ذلك بأن للصوت من الصفات الحسية ما يوحى أحيانا بالمقصود من الكلام، مثال ذلك أن يدل المتكلم بجهر المهموس او بهمس المجهور أو بإجراء نقل المخرج أو تعديل شيء مما جرى عليه عرف النطق في فهم السامع من ذلك ما يوحى به الانطباع. إن من قواعد النطق العربي للكلام أنه لا يصح البدء بنطق الحرف الساكن. فإذا كان على المتكلم أن يبدأ

غير أن هؤلاء الذين لم يروا أن المعجم لا يمثل نظاما، وأنه مجرد سجل لمفردات اللغة، كانوا هم أنفسهم الذين لاحظوا وجود ظاهرة الحقول المعجمية التي تنتمى إليها مفردات المعجم، وأن كل مفردتين مختلفتي الحقل قد تصلحان أو لا تصلحان أن تضام إحداهما الأخرى، وهذا ما عبر عنه البيانيون بقولهم: أسند إلى من هو له أو لم يسند إلى ذلك. ومن الحقول التي أشرنا إليها منذ قليل حقل القرابات وحقل المهن وحقل الألوان، إلخ. فحين نقرأ قوله تعالى: "يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير"، نجد لفظ (لباس) اتفق مع بني آدم ووارى سوآتهم، وأن هذا اللفظ نفسه لم يتفق مع (التقوى) إلا بانتقاله من حقل الملابس إلى حقل الملابسة، ليصير المعنى وملابسة التقوى ذلك خير (أى مصاحبة التقوى)، أفلا يصح بعد ذلك أن نقول إن المعجم واحد من أنظمة اللغة؟

وإذا كانت عناصر الأصوات مخارج وصفات وعناصر الصرف أصولا مجردة وصيغا وعناصر النحو علاقات ووظائف فإن عناصر المعجم هي الحقول المعجمية، وهى فى تقلباتها تنتفع كثيرا بقواعد الأصوات والصرف دون النحو، لأن النحو كما قلنا منذ قليل هو علم العلاقات، والمعروف أن العلاقات النحوية إنما تكون فى السياق لا في الإفراد.

دعنا الآن نلق نظرة على موضوع الدلالة في هذا الجانب الإفرادي تمهيدا للتفريق بين هذه الدلالة وبين الدلالة السياقية، ونبدا الكلام عن الأصوات. للصوت المفرد احتمالات متعددة من حيث الدلالة، أولها أنه ليس من شأنه أن يستقل بدلالة عرفية بحسب وضعه في النظام اللغوي؛ لأنه لا يعد من أقسام الكلم. لكن للصوت المفرد من طرق الاستعمال ما يجعله دالا على انطباع معيّن أو على معنى وظيفي هو جزء من نظام اللغة.

ـــ قال تعالى: "فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا"

المعنى أنهم بعد إتمام بناء السد وبعد أن افرغ ذو القرنين القطر على جسم السد أصبح من الصعب على يأجوج ومأجوج أن يتسلقوا السد أو أن ينقبوه. ولما كان

الدلالة اللغوية بين الإفراد المعجمي والتنوع السياقي

تمام حسان

دار العلوم- القاهرة

اللغة نظام كلي يتكون من نظم فرعية بينها علاقة التكافل، أي أن كل نظام منها ينتفع بعطاء الآخر، فيصدق عليها ما جاء في الحديث النبوي الشريف من قوله صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى". والمعروف أن الأنظمة الفرعية التي يتكون منها النظام اللغوي الأكبر هي:

- نظام الأصوات: وهو ينبني من المخارج والصفات والتفاعلات الصوتية والتغيرات التي تحدث في السياق المتصل.
- النظام الصرفي: وهو يتكون من الأصول المجردة كأصل الوضع وأصل الاشتقاق وما يتفرع عنهما من تغيرات الصياغة اللفظية من إدغام أو إعلال أو إبدال أو نقل أو قلب أو حذف أو معاقبة أو غير ذلك من عطاء نظام الأصوات ومن قواعد أصول الصياغة اللفظية. وإلى جانب ذلك عدد من وظائف العدول عن الأصل.
- النظام النحوي: وهو يتمثل في طوائف من العلاقات المجردة التي تجد التعبير عنها في عناصر نظامي الأصوات والصرف. كما يتألف هذا النظام من المعاني الوظيفية التي تنشأ عن تطبيقات النظامين المذكورين.
- ولقد أجمع علماء اللغة تقريبا على أن المعجم لا يمثل نظاما من أنظمة اللغة، بل هو في رأيهم سجل لمفرداتها. وهذه المفردات لا تتجمع على صورة منظمة يمكن أن ينشأ عنها علم مضبوط ذو قواعد على الطريقة التي كانت تتميز بها الأنظمة السابقة.

Journal of Qur'anic Studies 11.2 (2009): 160–175
Edinburgh University Press
DOI: 10.3366/E1465359110000872
© Centre of Islamic Studies, SOAS
www.eupjournals.com/jqs